رفيق جبور

«كنا ممن اندمج فى حركة العمال منذ تجددت نهضتهم إلى الآن، وجاهدنا معهم وتمشينا وإياهم درجة درجة، فاختبرناهم واختبرونا».
رفيق جبور

نحن الآن مع مناضل أرستقراطى النشأة، ملتهب الموقف، منحاز تماما لطبقة العمال وللاشتراكية.

رفيق حبيب جبور ولد عام ١٨٨٢ فى زحلة (لبنان) لأب طبيب أرستقراطى، وبفضل موقع والده اختارته دولة إيران قنصلا فخريا لها فى إستنبول وهو لم يزل فى العشرين من عمره، وإذ تشتعل الحرب العالمية الأولى وبدأ الشريف حسين فى الإعداد لإعلان الثورة العربية ضد الخلافة العثمانية كانت ثمة نقطة ضعف تقلقه، وهى أن دولة الخلافة كانت كعادتها تحتجز أبناء الأمراء لديها لضمان ولاء الآباء، وهنا يتحرك القنصل المستند إلى حصانته الدبلوماسية والمتقد حماسا ضد دولة الخلافة وتسلطها على العرب فيقوم بتهريب الابن «الأمير فيصل» من إستنبول، وأعطى بذلك إشارة البدء للشريف حسين كى يتحرك بثورته ضد الخلافة التركية.

ويتلقى القنصل الشاب رسالة شكر من الشريف حسين ما زالت أسرته تحتفظ بها حتى الآن. ويتلقى فى ذات الوقت تأنيبا شديدا من إيران، أما الحكومة العثمانية فقد أرسلت لإيران احتجاجا شديد اللهجة واعتبرت «رفيق» شخصا غير مرغوب فيه، فقررت الحكومة الإيرانية نقله قنصلا فى الإسكندرية.

وإذ تلتهب الحركة الوطنية المصرية ينسى رفيق جبور فى خضم تعاطفه الجارف معها وضعه الدبلوماسى وانخرط بحماس فى إطار حركة تضم عددا من اليساريين اللبنانيين المقيمين فى مصر. وتوالت احتاجات سلطات الاحتلال على نشاط القنصل، وحاولت

الحكومة الإيرانية إغراءه بمنصب أكثر أهمية وهو القنصل العام لإيران بالقاهرة، لكنه ركل ذلك كله وانخرط بحماس فى العمل الثورى تاركا المركز الاجتماعى المرموق والمرتب الضخم.. وعمل صحفيا.

وبعد فترة قصيرة من العمل فى جريدة «المحروسة» التحق بجريدة «النظام» التى كان يصدرها السيد أفندى على صاحب أول محاولة لتأسيس حزب عمالى فى مصر، وعلى صفحات «النظام» تألق رفيق جبور كصحفى ثورى وطنى واشتراكى، ويذكر التاريخ له أنه كان أول من رفع شعار «مقاطعة لجنة ملنر»، وما لبث جبور أن انضم هو وعدد من مؤسسى المنظمة اليسارية اللبنانية فى مصر «جماعة لبنان الفتى»، ومنهم أنطون مارون وشفيق باسيور وأديب قشعمى وفؤاد الشمالى، إلى الحزب الاشتراكى فور تأسيسه عام ١٩٢١ لكنه ما لبث أن قبض عليه بتهمة الاشتراك فى عملية اغتيال السير لى ستاك، ولأن «النظام» كانت تصدر رسميا كجريدة وفدية فقد نشرت «الأهرام» نقلا عن «المورننج بوست» الإنجليزية أن ثمة أدلة تؤكد «علاقة الوفد بدسائس البلاشفة التى يلجأ إليها الوفد بلا ضمير فى حربه ضد الإنجليز» (الأهرام ١٩٢٥/٦/٣) أما «الديلى تلغراف» فتقول: «إن أخطر ما كشفه البوليس هو العلاقة الوثيقة بين دسائس البلاشفة وحملة القتل وعلاقة ذلك بحزب الوفد لأنه يوجد بين المقبوض عليهم طاهر أفندى العربى المحرر بكوكب الشرق ورفيق جبور المحرر بجريدة النظام وهما صحيفتان وفديتان» (الأهرام ١٩٢٥/٨/١).

ويفزع سعد زغلول من هذه الحملة، ويذكر الجميع بأنه هو الذى أصدر قرار حل الحزب الشيوعى المصرى عام ١٩٢٤، وينفى سعد زغلول هذه العلاقة فى مذكراته قائلا: «إن وزارة الشعب كانت عنيفة على الشيوعيين، وإنها أرسلت الكثيرين منهم إلى القضاء» (مذكرات يوم ١٩٢٥/٦/٤). وفى ٦ أكتوبر ١٩٢٤ أصدرت محكمة جنايات الإسكندرية أحكاما بالسجن ثلاث سنوات على عدد من قادة الحزب، وإعلانا للتحدى تشكلت فى ذات اليوم لجنة مركزية جديدة للحزب الشيوعى كان رفيق جبور عضوا فيها وتولى مسئولية الإعلام، واتخذ رفيق اسما سريا هو محمد صديق عنتر، ومضى كالإعصار فى مواجهة حملة العداء ضد الاشتراكية والاشتراكيين، وأسرع بترجمة كتاب «خلاصة المبادئ الاشتراكية» لكارلوس رابورت.

وأضاف إلى الترجمة المتقنة مقدمة وخاتمة توضحان المبادئ الأساسية الواردة فى

الكتاب، وفى المقدمة يحذر محمد صديق عنتر القارئ قائلا: «ليس هذا الكتاب رواية فتطالعه على عجل، ولا صحيفة إخبارية فتلقى عليه نظرة سطحية ثم تلقيه من يدك فى زوايا النسيان»، ثم يمضى قائلا: «فأنا كنت حائرا مثلكم فى معرفة نهاية الطريق الذى تدفعنا إليه الهيئة الاجتماعية الحاضرة، وقد عرفت هذه النهاية الآن، وهى أننا واصلون حتما ولا محالة إلى سيادة المبادئ الاشتراكية التى عرضتها عليكم فى هذا الكتاب، ومن ثم ترتاح الإنسانية من تنازع الطبقات، ومن ظلم الإنسان لأخيه الإنسان فاقرأوا هذه المبادئ وادرسوها واحفظوها فهى التى ستسود بلا ريب» (ص٣).

وفى الخاتمة يكاد رفيق جبور أن يعلن للقارئ وللمجتمع أن اسم محمد صديق عنتر هو اسم سرى لأحد قادة الحزب، فيقول: «وسيتبع كتابى هذا كتب أخرى، فكلما رأيت اسم رفيقك محمد صديق عنتر على كتاب فاعرف أنه مقدم إليك منى، وقد سميت نفسى رفيقك وأنا متأكد أنك طالما تقتنع بهذه المبادئ سنصبح رفاقا، وأن كاتب هذه الأسطر رفيق لك وها هو يبذل جهوده فى سبيل سعادة الطبقة العاملة فى المستقبل فهلا شاركته فى هذا العمل؟».

ويواصل رفيق جبور نضاله الإعلامى والتنظيمى النشط.. ويؤسس جريدة علنية هى «الحساب».

* * *

«وحزب العمال المصرى يجب أن يتألف من مختلف طوائف العمال ومن عمال الأرياف الذين يشتغلون بالزراعة. وهاتان الطبقتان هما أساس وأركان وجدران الحزب. وبعد ذلك لا بأس من قبول بعض أبناء الطبقات الأخرى».

رفيق جبور

وفى ١٩٢٥ يبدأ رفيق جبور معركة جادة بمناسبة إجراء الانتخابات البرلمانية، فتوجه إلى وزارة الداخلية طالباً الترخيص له بإصدار جريدة، وقبل منه الرسم المقرر، لكن الوزارة رفضت. فاستأجر جريدة «الحساب» وصدر العدد الأول فى ٦ مارس ١٩٢٥، وعاد اسم محمد صديق عنتر المصرى، ليتألق على صفحات «الحساب» معلناً منذ يومها الأول «لأجل الطبقة العاملة من فلاحين وعمال أنشأنا هذه الصحيفة، لأجل إسماع السلطات الحاكمة وباقى الطبقات فى مصر صوت هذه الطبقة البائسة المظلومة أقدمنا على هذا

العمل الشاق، فالطبقة العاملة هى أكثر الطبقات عدداً وأكثرها بؤساً وشقاء وأقلها نصيباً من اعتناء الحكومة بها وإزالة المظالم عنها».

وفى الانتخابات البرلمانية التى أجراها زيور باشا بعد حل البرلمان الوفدى، يسعى الحزب إلى إيجاد منبر علنى يعمل من خلاله فأسس «لجنة الدفاع عن العمال والفلاحين»، وتنشر «الحساب» برنامجاً لهذه اللجنة، ويدعو محمد صديق عنتر المصرى الناخبين قائلاً: «لا تعطوا أصواتكم لأى شخص لا يقبل هذا البرنامج، ويعدكم بتنفيذه». وعلى صفحات «الحساب» يبدأ رفيق جبور معركة تأسيس الحزب وإعلانه من جديد. وكالعادة تنشر رسالة لقارئ مجهول تقول: «إنى أقدر الجهود التى تبذلها الحساب فى سبيل الطبقة العاملة ولكن عملها سيبقى ناقصاً وغير مثمر ما دام لا يوجد حزب عمال يتدرج ويقوى مع الزمن، ويتسلم بيديه الحديديتين حقوق ومطالب العمال. فما رأيكم دام فضلكم؟»، ويكتب «رفيق جبور» رداً على الرسالة – التى ربما كان هو نفسه كاتبها ـ ضمنه عديداً من المقالات، حول نظرية تأسيس حزب للطبقة العاملة وضرورة وجوده وممن يتكون والمواقف التى يتعين عليه أن يتخذها، ودور حزب الطبقة العاملة إزاء القضية الوطنية، ويعالج ذلك كله بأسلوب ماركسى راق وبسلاسة ويسر بحيث تصل الكتابة إلى أذهان العمال بسيطة ومفهومة. ونقرأ بعضا مما كتب: «لقد تقهقرت الحركة الوطنية منذ أن خرجت من يد الطبقة العاملة من فلاحين وعمال وتسلمتها الطبقة الخاصة من الباشوات وأرباب الأعمال»، ثم يقول: «إن للطبقة العاملة مطالب معروفة محددة وهى تريد الانضواء تحت راية الحزب الذى ينيلها مطالبها ويدافع عنها. وقد عرف العمال أنه لا فائدة ترجى لها من الأحزاب الحاضرة فيجب إذن أن تنشئ لنفسها حزبا خاصاً بها». ولكن ممن يتكون هذا الحزب؟ يسأل محمد صديق عنتر ويجيب «إنه يتكون من العمال وعمال الزراعة أساساً لكن الحزب المنشود يضم فى صفوفه خمس طبقات أو فئات: عمال المدن ـ عمال الريف ـ فقراء الفلاحين ـ المثقفين الثوريين ـ الحرفيين وصغار المنتجين الصناعيين ـ الفلاحين المتوسطين.. إلا أن العمود الفقرى للحزب ودماغه المفكر وقلبه النابض يجب أن يكون من العمال. وعلى قانون الحزب الاحتياط الشديد لعدم تمكين بعض أفراد الطبقات الأخرى التى تندمج فى الحزب من السيطرة عليه والتلاعب بمصالحه، بل يجب أن يكون حزب عمال للعمال ومن العمال. وعلى كل حال يجب أن تكون وتبقى السيطرة فى الحزب للعمال وحدهم».

ثم يسأل رفيق جبور: «والآن ما هى مرامى الحزب وأغراضه؟ هذا ما سنتكلم عنه فى العدد الآتى».

لكن العدد الآتى لا يأتى. فـ«الحساب» يلغى ترخيصها. ورفيق ورفاقه يقبض عليهم فى ١٩٢٥/٦/١ ووجهت لهم تهمة «ارتكاب جنايات القتل العمد، ونشر الأفكار الثورية المغايرة لمبادئ الدستور الأساسية، وتحبيذ تغيير النظم الأساسية للهيئة الاجتماعية بالقوة والإرهاب وبوسائل أخرى غير مشروعة، وانتهاك حرمة ملك الغير، وتأليف عصابة من العمال وصغار الفلاحين لمواجهة طائفة من السكان»، وعندما أتى البوليس للقبض عليه استقبلهم شامخاً هادئاً وتهكم قائلاً: «لا تفتشوا عن شىء فأنا لا أمتلك سوى قلمى فهل تضبطونه؟».

وفى المحكمة قدم دفاعاً سياسياً وطبقياً حاداً وعنيفاً هاجم الحكم والنظام الرأسمالى ودافع عن الاشتراكية وأعلن تمسكه بها وهاجم القضاة واتهمهم بالعمالة. وأدان الاحتلال والحكومة الموالية له. واحتار القضاة، فهو لم يضبط معه شىء سوى قلمه. وما كتبه من مقالات لا تتضمن فعلاً مجرماً. لكن القضاة عرفوا كيف ينتقمون منه.. حكم مخفف (ستة أشهر حبس) مع إبعاده عن البلاد فور قضاء مدة العقوبة. فوقف غاضباً صاخباً صارخاً فى وجه القضاة: «إننى أحتج ليس على السجن وإنما على الإبعاد من بلد أحبه وأحب ترابه، وأفنيت أغلب عمرى مناضلاً من أجل شعبه»، واختتم خطابه الملتهب مهدداً القضاة المذهولين: «سأعود. سأعود لمصر. سأعود يوم تكون مشانقكم قد نصبت فى ميدان المحطة».. وتنتهى فترة السجن فيقتادونه هو وأسرته إلى المركب لترحيله إلى لبنان. ويروى ابنه روفائيل فى رسالة خاصة تلقيتها منه مؤخرا أن شرطة خفر السواحل قد رافقت المركب لمسافة عشرين ميلاً، وكان رفيق يضحك قائلاً: «هل يظنون أننى سأعود سباحة؟».

وعندما وصل إلى بيروت كان البوليس الفرنسى فى انتظاره حيث اقتادوه لمقابلة الكولونيل كاترو الذى حذره من الاشتغال بالسياسة، وحاصروه حصاراً خانقاً حتى كانوا يقبضون على كل من يلقى عليه التحية، فترك لهم لبنان وسافر إلى فلسطين حيث رأس تحرير صحيفة «فلسطين» التى ألهب صفحاتها هجوماً على الاحتلال وعلى الصهيونية ودفاعا عن عروبة فلسطين. وبعد بضعة أشهر دخل المستشفى لإجراء جراحة بسيطة لكنه توفى أثناء إجراء العملية. ويؤكد ابنه أن المخابرات البريطانية تآمرت على حياته وتخلصت

منه، ويؤكد هذا الشك بأن الإنجليز رفضوا نقل جثمانه إلى بيروت، رغم إلحاح أسرته، خوفاً من تشريحها ومعرفة سبب الوفاة.

ويرحل القنصل العام.. والمناضل الأرستقراطي الأصل، المدافع الصلب عن العمال والفلاحين. تاركاً تراثا فكريا ونضاليا أكثر من رائع.